

الوباء من خلال النوازل الفقهية و الكتابات المنقبية في المغرب الأوسط ق 07-08هـ
14/ - 15م

The Epidemic Through the Juristic Issues in the Middle Maghreb

مصطفى صمراني* جامعة الجزائر 2

alger2.dz

نور الدين غرداوي جامعة الجزائر2 ngherdaoui@yahoo.fr

مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط (الجزائر) إلى نهاية العهد العثماني

تاريخ الاستلام: 2023/06/04 تاريخ القبول: 2023/07/09 تاريخ النشر: 2024/01/31

الملخص: يتضمن هذا الموضوع بعض النقاط الحاسمة والمنعرجات والانعطافات والتغيرات التي طرأت على المغرب الأوسط، وظلت منسية من جهة الدراسات الفقهية والمؤلفات التاريخية، ورغم الدراسات المتواترة حول المغرب الأوسط خاصة في العهد الزياني، فلا تزال بعض النقائص من حيث دراسة الأوبئة خلال القرنين (07 و 08 هـ)، فهذا الوباء تسلط عليهم مثل العنة التي حلت بهم ، ولم تحضى هذه الفترة بالدراسة الكاملة مثل الدول الأوروبية التي عاشت نوع من هذا الوباء، وكذلك بلاد المشرق الإسلامي، ورغم هذه الدراسات عن الأوبئة لازال المؤرخين لا يفرّقوا بين الوباء والطاعون، فالطاعون جزء من الوباء، أما الوباء أشمل من الطاعون والطاعون الأسود والجذري والجذام والحمى والبرص والسعال والذبحه... الخ، ورغم المفتين المؤرخين الذين ساهموا في كتابة هذا الجانب مثل: المازوني، البرزلي، اليعقوبي، ابن رشد الجد، الونشريسي، ابن خلدون(عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين)، ابن خلدون (يحيى)، نورالدين غرداوي، نبيلة عبد الشكور، وغيرهم من الفقهاء والمؤرخين، الذين أباتوا لنا بعض الجوانب مثل: مساهمة المجتمع، والطبقة الحاكمة والفقهاء والمحدثين وإيجاد حلول لهذا الوباء الذي حصد الكثير من الأرواح، وهذا الوباء مثل الأمراض التي حلت بنا اليوم.

كلمات مفتاحية: المغرب الأوسط، الوباء، النوازل الفقه، الصيدنة، الطب.

Abstract: This topic contains some decisive points and changes that occurred in the middle Maghreb. Points which remained ignored by all juristic studies and historic works. In spite of the frequent studies about the middle Maghreb especially on the Zianidages, there still some shortcomings concerning epidemiology on the two centuries (07th and 08th AH). This epidemic was like a curse that was spelled on them. This period did not get a thorough study about the epidemic like that one was

made on european and oriental countries that suffered from such kind of pandemics. Despite these studies about epidemics, historians could not make distinction between an epidemic and the plague: The plague is part of the epidemic, while the epidemic is more thorough than the plague, the smallpox, leprosy, fever, vitiligo, cough and angina, etc. Even though historians and muftis who contributed in writing this part like: Al-Mazouni, Ibn Roshd Al-Jadd, Albarzali, Albayooqi, Al-Woncharissi, Ibn Khaldun (Abdel Rahman Abu Zaid Wali-Addine), Ibn Khaldun (Yahia), Nabila Abdel Shakur and other historians who demonstrated for us some points such as:

The contribution of society, the ruling class, Muftis and Hadith narrators on finding solutions for the epidemic which reaped a lot of lives.

Keywords: Maghreb countries , Middle maghreb, Epidemic, Juristic issues, pharmacology , medicine.

1. مقدمة:

شهدت بلاد المغرب الإسلامي عامة ومنطقة المغرب الأوسط خاصة الكثير من الأوبئة التي تسمى بالأزمة البشرية، والتي دونت في الكتابات التاريخية وكتب النوازل الفقهية وكتب الجغرافيا الطبيعية والبشرية، فقدمت معطيات تتعلق بتاريخ الأمراض والأوبئة منها تاريخ الأزمات والتاريخ الإسلامي الاقتصادي والاجتماعي والطبيعي، التي أعطت للتاريخ نظرة أكثر شمولية، التي وضحت في النوازل الفقهية مثل: المغرب الأوسط في العصر الوسيط والأقاليم الجغرافية الأخرى التي شهدت أزمات وأوبئة عديدة، فعاشت البلاد على إثرها سلسلة من التحولات الكبرى والمنعرجات الحاسمة

في مسارها التاريخي، فأصبحت أزمة الوباء من أشد البلايا وقعا على هذا الشعب، حتى أصبح الإنسان لا يستطيع العيش في المغرب الأوسط في تلك الفترة، ولا تزال هذه الأوبئة على سبيل المثال بحاجة ماسة إلى دراسة عميقة، علما أن الكتابات التاريخية والنوازل الفقهية للمغرب الأوسط يستوجب الإلمام بكل حيثياتها، دون إهمال أي جزء منها، لذا يجب على الباحثين التنقيب عن هذه المواضيع في المغرب الأوسط، خاصة وأن الدراسات السابقة قد تحدثت عن المسارين السياسي والعسكري، لكن أهمل الجانب الحضاري، لذلك أردت التأريخ لهذا الجانب الحضاري المتخصص في الأوبئة بالمغرب الأوسط من خلال النوازل الفقهية، حيث تحدثت عن الفترة الزبانية، التي طرأ عليها تأثير على كافة المستويات، على الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي و الديموغرافي وغيرها، خاصة في ضلّ محدودية الدراسات السابقة والتي وإن أطرقت الموضوع كانت أكثر انتقائية وعمومية في تناولها وطرحها.

وإلى ذلك مامدى حضور موضوع الأوبئة والجوائح الطبيعية في الكتابات النوازلية والفقهية والمنقبية ؟ وكيف يمكن تسخير المادة التاريخية ذات الأصل الفقهي والديني في سدّ ثغرات التاريخ الاجتماعي الذي كادت أن تتجاوزه كتب التاريخ العام؟ وإلى أيّ حدّ كان تأثير تلك الجوائح على الاستقرار المجتمعي وتواصل حضارة مغرب العصر الوسيط في نصفه الثاني؟.

وإذا كانت الإشكالية الرئيسية لهذا الموضوع تحيل الباحث مباشرة على إشكالات فرعية تتعلّق بالجانبين المنهجي والمفاهيمي للموضوع، فإنها تجبر الباحث على التدقيق في تناوله لصلب الموضوع عبر إشكاليتين فرعيتين مرتبين حسب المنحى التاريخي العام لبلاد المغرب وحسب تفاصيل الحراك الاجتماعي الذي سيتأثر بالعوامل القسرية الطارئة المتمثلة في الأوبئة والجوائح التي ستمثّل حدثا عاما فارقا على جميع أصعدة الحياة لعامة الناس وخاصتهم وعلى مقدرات عيشتهم. فكيف كان تأثير الوباء على النسيج المجتمعي للسكان في بلاد المغرب الأوسط في عصره الوسيط في القرنين 7 و8 الهجريين /14 و15 الميلاديين؟، ومامدى فاعلية بنى الدولة والمجتمع في مواجهة أخطاره والتقليل من آثاره السلبية؟، وإلى أيّ مدى سيؤثر الوباء في المنحى الحضاري العام لتواصل مدنية بلاد المغرب في النصف الثاني من العصر الوسيط؟.

2. ملصح الانسان في الدراسات الاجتماعية في بلاد مغرب العصر الوسيط:

2. 1. إشكالية المادة التاريخية في المصادر المنقبية والنوازلية:

كان توجه البحث التاريخي في الجامعة الجزائرية وكما هو معروف عنه ينطلق ويتوقف عند الجوانب السياسية والاقتصادية للمجتمعات والدول والأمم، وعلى الجوانب الفكرية والعلمية والحضارية فيها على أبعد تقدير، حتى مطلع الألفية الثالثة لما توجهت الأنظار والاهتمامات البحثية إلى جوانب غير تقليدية كانت مصنفة ضمن إطار التاريخ الهامشي في حياة المجتمعات والشعوب كمسألة الصحة وشؤون التربية والعلاقات الأسرية وتوصيفات العقل الجمعي للقبائل والعشائر والأفخاذ والبطون ولعلّ هذا التهميش لا يدخل في دائرة الإقصاء الثقافي المقصود بقدر ما يدخل في الرؤية التقليدية الجافة لمفهوم علم التاريخ التي اقترنت بسرد أحداث الإنسانية الماضية التي مضت و زال موكب التاريخ منها والتركيز فيها على حياة العظماء والفاعلين والمؤثرين على جميع أصعدة الحياة.

إنّ التوجه نحو إطراق تلك المواضيع الجديدة من حيث تناولها ضمن حقل العلوم التاريخية والقديمة في الوقت نفسه في مصادرها وأصول مادتها الخبرية سيرافقه ولحسن الحظ حضور مادة خبرية ستظهر وكأنّها تقليدية من حيث عراققتها و زمنيّتها، على أنّ ملمح الجودة سيكون من حيث ورودها وانتظامها من جديد في حقل الدراسات التاريخية ذات الطابع المجتمعي الانساني العميق الذي لا يركز على فئة مجتمعية دون الأخرى، خاصة إذا رافقها حسن استعمال ومهارة توظيف من طرف المهتمين من الباحثين في التاريخ.

إنّ تلك المصادر لن تكون سوى الكتابات النوازلية والمنقبية وكتب الفقه والحسبة التي كانت تصنف إلى زمن غير بعيد ضمن حقل العلوم الشرعية وفنون الآداب والأخلاق والتصوّف والتزكية التي يختص بدراستها والاستفادة من مادتها مختصون آخرون في ضروب العلم والمعرفة وكانت تصنف بأنّها مادة لا ترتبط بحديثيات التاريخ ولا بموضوعاته السابق ذكرها ولا بفنونه ولا ينبغي أن يعتمد عليها المؤرخ في استنقاء المعلومات وفي إعادة بناء الحادثة التاريخية وإعادة توصيف تفاصيلها من جديد تمهيدا للحكم عنها عبر مناهج التاريخ المتعارف عنها.

إنّ وجود مادة علمية غزيرة متناثرة بين أحضان تلك المصادر لم يعد سراّ لدي المهتمين بالمادة المصدرية ولم يعد جدوى الانتفاع بها من عدمه موضوع نقاش بينهم بقدر ما سيشكل الأمر تحديا في انتقاء ما سيخدم المعرفة التاريخية منها، فالكتابات المنقبية قد تحمل لنا إفادات تاريخية وحدثية هامة وحقيقية في معظمها، لكننا سنصطدم بمسألة ذاتية الكتاب والمؤلفين المكلفين بمهام حصر مناقب الشيوخ والأعلام والقامات

من رجال العلم والسياسة والثقافة والتصوف، فقد تتحول تلك المدونات من مواد إخبارية تنقل لنا أخبار عصر الكاتب ومختلف الأوضاع إلينا، كما يأمل ويتمنى الباحث إلى مادة جافة خاوية في مضمونها التاريخي غزيرة في شكلها الفني والجمالي بما تحمله من مسحة أدبية إنشائية كان المؤلف يستهدف من خلال تأليفه إظهار قدرته على توصيف الممدوح بما يليق به، وأكثر إلى فوق ما تمثله شخصيته الحقيقية فتضيع المعرفة الحقيقية المنشودة من هذه المادة وتتهاوى عند تلك الفنيات والجماليات الأدبية. على أنّ هذا المشكل لن يتوقف عند كتب المناقب والرجال بل سيصطدم المهتمون بكتب الفقه والنوازل بمشكلات أخرى، قد تعيق استقاء المعلومات والأحداث الخبرية التاريخية المأمولة ذلك أنّ كتب الفقه لا تحيط علما بحديثيات الحوادث وبمصادر معلوماتها بل تعزو أغلبها إلى مجاهيل عند الحديث عن واقعة سياسية أو أحداث وظواهر مجتمعية وقد يكون لها العذر الكامل في كون أنّها مصادر للدين وعلومه ولم يكن سيعول عليها الباحثون المهتمون بالتاريخ لولا توسع علومه ومدارك أهله ولولا الحاجة الماسة للاهتمام بجميع جوانب الانسان.

إنّ كتب النوازل المذهبية ورغم ما ستضيفه من فائدة للتاريخ وأهله، إلا أنّها لن تخلو من انتصار للمذهب والجماعة والطائفة والأتباع، وهو مشكل يتعلّق بالموضوعية والحيادية من جديد، لكنّ وفرة تلك المصادر وبالشكل الذي نصفه لن تشكل خطرا على المعرفة التاريخية، بل ستفتح لها مجالات للانتقاء والاستقصاء والمقارنة وسدّ الثغرات التي تخللت تاريخ المجتمعات والشعوب والدول والممالك وبالاعتماد بطبيعة الحال دوما على مهارة وحذق المؤرخ المقبل على تناول تلك المادة النوازلية، سيتمكن من إعادة بعث جوانب تقارب الحقيقة التاريخية من جديد، وتحل إشكالات مفاهيمية ضلّت على الجانب طيلة مدة غياب تلك المادة التاريخية الهامة المهمّشة.

وبالإضافة إلى ما أشرت إليه يمكن للباحث أن يسجل مختلف التخوفات المنهجية التي تنتاب الباحث المقبل على الدراسات التي ترتبط بالجانب الاجتماعي، وذلك لسرعة ارتباطها بجوانب أخرى ما بين سياسية وعسكرية واقتصادية و حضارية بشكل أعم، فمناقشة مسألة القبيلة و النظام القبلي على أساس أنّها مظاهر اجتماعية بحتة مثلا سيحيل الباحث إلى توصيف آخر للقبيلة التي ستظهر بشكلها السياسي كونها تتحول بسرعة من كيان اجتماعي إلى مؤسسة سياسية لها طموحات في السياسة و الحكم لتزداد صعوبة تناولها شدة عند مناقشة نزوعها إلى المنافع الاقتصادية وما يرتبط بها

من معطيات الأرض، ووسائل الكسب، وهو ما سيحدث مع موضوع الأوبئة في فترة دراستي هذه لما يظهر ارتباطه المباشر بمختلف مناحي الحياة الأخرى .

2.2. الصحة و المجتمع في الكتابات النوازلية و المنقبية:

قد لا نكون منصفين إذا لم نعزو لابن خلدون حسن التفاته إلى فنون التاريخ و إعادة تعريف اللاحقين بعده بها، وإضافة التاريخ الاجتماعي إلى ضروب علم التاريخ ومضامينه المعرفية، فلا يمكن أن نصف مقدّمة ابن خلدون كما هو معروف عنها، إلا مقدّمة لعلم الاجتماع الانساني بشئى أنواعه وتفرّعاته، خاصة ما يهتم منه بساكنة بلاد المغرب، والعالم الاسلامي، وطبائعهم ونفسياتهم واهتمامهم ونزوعهم وأنماط عيشهم وتوّع أفكارهم ومشاربها، التي كادت الكتابات السابقة لعصره أن تخلو منها لشدة ارتباط تدوينهم بالسياسة والأحداث والمواقع العسكرية.

جاء في مقدّمة ابن خلدون تفاصيل مهمة حول الصحة، ذكر فيها أنماط التداوي وأشكال الاستطباب وطلب الشفاء ومعرفة الأمراض وأسبابها (خلدون، 2004، صفحة 289)، والكيمياء التجريبية الطبية وعلوم الطب وأنواعه، خاصة ما سيسى بداية من مقدمته بعلم الطب الروحاني وعلم الكواكب والطوالع والنجوم، وارتباطها بصحة الانسان، بل ناقش ابن خلدون وعرفنا بحديثاته وتاريخ حدوثه عند المسلمين وبحث في أول من أخذ به وصنف فيه (خلدون، 2004، صفحة 311).

أما في كتب النوازل فقد عالج الونشريسي مسألة شيوع توجه العامة من الناس لطلب الطبيب عند العرافين والمنجمين والذين يأتون السحر وعلم الطوالع، ثم بين امتعاضه وشجبه لتوجهات العامة وسوء اختيارهم لهذا المنحى، مما يدل على شيوع تلك الظاهرة في مغرب العصر الوسيط (الونشريسي أ.، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية و الأندلس و المغرب، 1981، صفحة 311)، وعالج في نازلة فقهية حول تجارة الزعفران و خلط جيده برديئه استعمال الزعفران كعلاج طبي يستعمل للتداوي من علل في عصره (الونشريسي أ.، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية و الأندلس و المغرب، 1981، صفحة 217)، مما يدل على شيوع التداوي بالعقاقير و الأعشاب الطبية إلى جانب تعلقهم بالرقى والروحانيات.

3. الوباء في بلاد المغرب الأوسط في العصر الوسيط:

ظهر اهتمام الباحثين بالأوبئة والأمراض التي تتفشى بشكل جماعي دون غيرها من الأمراض كالموسمية والمعروفة منها، وذلك لارتباطها بتغير خارطة توزيع الساكنة في المجالات الجغرافية خاصة توزيع الساكنة بشكل كلي في بعض الأحيان،

وهو الذي سيفسر غياب جماعات وقبائل بشرية من صدارة الأحداث فجأة في تاريخ الفترة الوسيطة، لأن الانتشار السريع و الفجائي للأوبئة كان يفوق قدرات أجهزة الحكم ومقدرات دول وممالك ذلك العصر، التي كانت تصارع هي الأخرى مشاكل وتواجه تحديات أخرى، ترتبط في غالب الأحيان بالنزاعات والحروب الداخلية وبالتدخلات الأجنبية التي تستنزف بطبيعة الحال إمكانات الدول بحثا عن الاستقرار للدول الضعيفة منها، وطمعا في توسّع واكتساح جغرافيا دول أخرى للقوية المتمكّنة منها فلم تكن لذلك معالجة تلك الظواهر في صميم اهتمام الحكام والأمراء بشكل رئيس.

3. 1. الطاعون:

يرى الكثير من الفقهاء والمؤرخين والأطباء من خلال كتاباتهم، أن الوباء والطاعون اسم واحد والوباء هو الطاعون، دون مراعاة الفرق بينهما، لذلك يجب علينا معرفة الفرق بينهما حتى نستطيع التمييز بين الفترات التي يظهر فيها الوباء أو الطاعون (مزدور، 2009، صفحة 21)، فالطاعون هو الوباء لكن ليس الوباء هو الطاعون، فالوباء أشمل منه والطاعون مرض مثل: الجذري والجذام والحمى والحصبة والذبحة والسعال الجاف وغيرهم، فهذه الأمراض كلها وباء (الجوزية، 2006، صفحة 38)، فكان الطاعون بالنسبة لأهل سكان المغرب الأوسط مثل اللعنة التي حلت بهم، تأخذ الأرواح وتفسد أوضاعهم من شتى أنواعها (رفيق، 2021، صفحة 11)، فتظهر هذه الأمراض في فترات زمنية مع تحول الفصول، ففصل به الحرارة والأخر به البرودة (الأنطاكي، 1995، صفحة 335).

فهذه الأمراض البكتيرية تظهر على الإنسان والحيوان بحدة وحرارة، التي تدخل جسم الإنسان على شكل تسممات من خلال الغذاء أو الهواء، الذي يصيب جهاز الدورة الدموية بسبب دوران البكتيريا المرض في مجرى الدم وكذلك الطاعون الرئوي... الخ، أو المياه التي تكون في البر أو المستنقعات فغالبا تكون مياه متعفنة فعند شربها يحدث مرض من هذا الماء خاصة في بطن الإنسان (التمساني، 2008، صفحة 246)، كذلك من أنواع الطاعون الدبلي أو الدملي أو العقدي أو الذبحة التي تأتي بنفث الدم ويذكر الشيخ الإمام ابن حجر في (بذل الماعون) أن هذه الأمراض من أنواع الطاعون والطاعون هو نوع من الوباء (المواق، 2007، صفحة 105).

فالطاعون يظهر في الأجساد أو المادة اللحمية أو تحت جلد البطن وغشائه حتى أن الجلد له علاقة بالأعضاء التي داخل الجسد ويحدث ألما شديدا فيها مثل: الغدد والأمعاء والرئة والكبد والبلعوم والقصبه الهوائية... الخ (سينا، دت، صفحة 1137).

كذلك الطاعون الرئوي مثلما قال ابن خلدون عبد الرحمان أنه يظهر في الهواء الرطبات الفاسدة والعفن في المناطق المغطاة بالأشجار مثل: المناطق الغابية التي تموت الحيوانات بداخلها فتنفس وتتعبن فيتعبن الهواء والماء (خلدون، 2004، صفحة 282)، لذلك نستطيع القول أن ليس الهواء فقط مسئول عن ظهور الأمراض والأوبئة وحده فقط، بل المياه الراكدة أو الجارية مثل ما جاء في شعر البكري:

قوله :

فمتى تلملما بها جاهلها يرتحل عن أرضها قبل الأغلس
ومأواها من فح ما خصت به مجس يجري على تراب نجس
فمتى تلعن بلادا مرة فاجعل اللعنة ذابا لتتنفس

كذلك ساهمت المياه الجارية في انتشار الأمراض والأوبئة مثل: الجذري والجدام والجرب والحمى والحصبة وهذه الأمراض انتشرت في الكثير من المناطق وليس في المغرب الأوسط فقط، بل كذلك المغرب الأقصى والأدنى (البكري، دت، صفحة 63)، كذلك الطاعون الدموي أي إبتان الدموية، كما ذكر ابن خاتمة في أبياته الشعرية:

قوله:

قد خالف الشرع وأحكامه لأنه يثبت بالرائحة
لا تثق بالحياة طرفة عين في زمان طاعونه مستطير
فكأن القبور شعلة شمع والبرايا لها فرش تطير

أما قول ابن الوردي:

يقلون شم الخل في زمن الوباء وفاقا لما قال الأطباء ياخلي
فإن قلت للطاعون تسطر على الورى يقول نعم أسطو وأنفك في الخل
وقال إبراهيم المعمار:

قبح الطاعون داء فقدت فيه الأحبة
بيعت الأنفس فيه كل إنسان بحبه (خاتمة، صفحة 359).

يذكر المؤرخون الأمراض التي توالفت على المغرب الأوسط في عهد الدولة الزيانية وشخصتها، منها مرض الذبحة و الدماميل والأورام والشبكية والكندا والصداع والفتق وداء الشاخة، وغيرها حتى القرن 09هـ -15م ظهر داء الإفرنج، كما علق عليه حسن الوزان أن هذا الداء انتقل إلى بلاد المغرب الأوسط عن طريق اليهود المهاجرين من الأندلس إلى بلاد المغرب، واستيطانهم بالمغرب الأوسط بعد أن سقطت غرناطة (المازوني، 2010، صفحة 88).

الذي كان يسمى بداء الإفرنج الزهري بأثره الموجع وقرحة مؤلمة، فتنشر بكثرة في بلاد البربر عبر السهول والصحراء دون الجبال والتلول الذي جاء بالأخضر واليابس فحصد أرواح كثيرة، فعندما كان هذا المرض يصيب الإنسان في أوروبا فيتجه نحو بلاد المغرب لسبب الهواء الطبيعي حتى أن أصيب به أهل بلاد إفريقيا، فكان ينتشر عبر التجار والحروب وزيارة الأقارب في إسبانيا وانتقال اليهود إلى المغرب والأفواج القادمة من أوروبا (الوزان، 1983، صفحة 84).

وبعض المؤرخين يذكروا في كتاباتهم أن مرض الطاعون ظهر ببلاد الصين، ببخيرة بالكاش شمال منغوليا حتى أن وصل إلى بحر القزوين ثم القسطنطينية ثم مسينة سنة 1347م ثم نابولي وبيزا والبندقية ثم الإسكندرية (حسن، 1999، صفحة 605)، حتى أن ظهر الطاعون الأسود سنة 751هـ-1350م في المغرب الأقصى الذي عرف بالمرض الفتاك ولم يسلم منه أحد، فقتل خلق كثير في المغرب الأوسط في عاصمة الدولة الزيانية، ففضى على الكثير من العائلات ولم يسلم أحدا منهم مثل: قول أبو عبد الله الخطيب ابن مرزوق: انقرضوا أولاد الحاج يوسف بن يحيى حفيد العالم التفريسي، وكذلك بعض العلماء منهم أبو عبد الله محمد بن يحيى النجاري، ومن مواصفات هذا المرض الخبيث حمى دائمة بارتفاع الحرارة وعرق وتشنج وبرودة في الاطراف وقيئ مراري وعطش والبصق بالدم حتى الموت (خالد، 2009، صفحة 23).

فهذا الطعون كان يظهر بعد مراحل، فظهر أول مرة في المغرب الأوسط في عهد الدولة الزيانية سنة 750هـ/1349م، ثم عاد سنة 764هـ/1363م، ثم عاد بعد أربعة سنوات أي سنة 768هـ/1367م، ثم عاد سنة 845هـ/1442م (خالد، 2009، صفحة 24).

3. 2. الجذري والجذام والحصبة:

الجذام والجذري والحصبة والسعال والذبحة وغيرهم من الأمراض التي تأثر على الكائن البشري في الدرجة الثانية من الطاعون (بولخطيب، 2010، صفحة 56)، فكان الجذام يأتي من بعض الأغذية مثل: للحوم الانعام والأسماك، أما الخضر مثل: الباذنجان والثوم والخردل والعدس والفاول، أما الفواكه مثل: التمر، حتى أصبح الأطباء يسمونه بداء الأسد، بتغير وجوه الذين أصابهم هذا الوباء وهو مرض معدي وينتقل بسرعة من شخص إلى آخر (الأنطاكي، 1995، صفحة 344)، فبعض الأطباء

يشكون ويرجعون سبب ظهور الجذام يعود إلى البثور المتعفنة وأكل بعض الحيوانات التي تأكل اللحم المسممة والمفترسة (البرزلي، 2002، صفحة 481).

يعتبر الجذري من الأمراض الخطيرة، فبرائحته الكارهة ينتقل بسرعة أما الحصبة فهي أقل خطرا من الطاعون والجذام، وهذا المرض ينتقل مثل الأمراض الأخرى من شخص إلى آخر أي ينتقل في الهواء، وكان يرى بعض الأطباء أن هذا المرض ينتقل من حيض النساء في الولادة، فأصبح الأطباء يقومون بغسل بطن المرأة التي تلد، فصنفها الأطباء إلى أمراض بكتيرية وأمراض فيروسية وأمراض المعدية التناسلية و الأمراض المعدية المحجرية (مزدور، 2009، صفحة 23)، أما الجرب فهو من الأمراض الحصبة فيرى الأطباء ظهور هذا المرض في جسم الإنسان من الأغذية و المأكولات الخشنة وأكل الحبوب والبقوليات الجافة (الوزان، 1983، صفحة 83).

ورأى علماء أهل ذلك العصر أن الوباء يظهر في ثلاثة حالات، الأولى من الماء والهواء والأطعمة الفاسدة، أما الحالة الثانية وخز الشيطان المتمثل في الصرع وغيرها، أما الحالة الثالثة التي جاء بها الميتافيزيقيين والأطباء أن يظهر هذا الوباء من فساد الدم ومن طعن الشيطان، وهناك آراء أخرى من يقول أن ظهور الوباء ناتج عن المجاعة والفقر (حسن، 1999، صفحة 607).

كما ذكر حسن الوزان صاحب كتاب وصف إفريقيا: "الإكثار من أكل الزيتون الجوز وغيرها من الأطعمة الخشنة التي لا تصلح لشيء يورث الجرب الذي يصعب التخلص منه، والجلوس على الأرض في الشتاء يسبب أحيانا لذي المزاج الدموي سعالا قويا وأما (الوزان، 1983، صفحة 83).

ومن بين العوامل التي تساعد في ظهور وانتشار الوباء، هي العوامل البشرية مثل: نظام الضرائب التي تؤدي بالناس للهجرة من مناطقهم فيقل الغذاء ويظهر المرض ويموت الإنسان، وكذلك الحروب والصراعات الناشئة بين الدول التي تؤدي إلى المجاعات وبسببها تظهر الأمراض، أما الأسباب الطبيعية منها: القحط والجفاف الذي يحدث المجاعات ثم تتجم خلفه الأوبئة، كذلك الجراد يقضي على المحاصيل الزراعية ويؤدي للهلاك، أما الزلازل والفيضانات والرياح والسيريكو التي تتلف الغلات الزراعية (عميور، 2013، صفحة 24).

4 . تأثيرات الوباء على المنحى الحضاري العام للدولة و المجتمع:

4 . 1 . علناصعيدناالاجتماعي والثقافي:

بلاد المغرب الأوسط مثل باقي المناطق في انتشار الأمراض والأوبئة، مثل الطاعون والجذام والجذري والحصبة والحمى... الخ، حيث كانت تأثيرات لهذا الوباء على مجتمع المغرب الأوسط، فواجهه نخبة من العلماء والفقهاء مثلما كان عليه ابن مرزوق الخطيب، الذي عمل على صنع دشيشا ويطبخه وعند نضجه يخرج به إلى المرضى والمنقطعين ويعطي كل واحد ما يشبعه، عندما يكمل عمله يتجه نحو المرضى العاجزين لخدمتهم من تغذيتهم وغسل أجسادهم وملابسهم ويحلق لهم رؤوسهم ويكنس لهم البيت (التلمساني، 2008، صفحة 246).

حيث توالى الأمراض على مولاته منها مرض الحمى فقال له إذهب إلى تلمسان فخاف ابن مرزوق وقال له والله لا فارقتك (التلمساني، 2008، صفحة 246)، كذلك كان العلماء والأئمة يقومون بالاستفسار عنه، ثم يأمرؤا الناس بالتباعد، ثم يدعوا الله عز وجل بأن يذهب هذا الوباء، والقيام بصلاة الاستسقاء، من أجل التخلص من هذا الوباء، حتى أن كان جل الأطباء ينصحون بالفرار (حسن، 1999، صفحة 607)، لذلك أجاب الرصاص بقوله: " أجمعت الأمة على أن الفرار ليس بواجب، وإنما الخلاف هل هو جائز أو مكروه أو حرام" (حسن، 1999، صفحة 608).

جاء في قول حسن الوزان: " وكثيرا ما يتلهى في المساجد يوم الجمعة خلال الوقت الذي يجتمع عادة آلاف الأشخاص، فإذا وصل الخطيب إلى أحسن فقرة في خطبته واتفق أن سعل آخر (ثم آخر) وهكذا حتى يسعل الجميع في نفس الوقت تقريبا إلى نهاية الخطبة فيفترقون دون أن يسمع أحدا إليها (الوزان، 1983، صفحة 84).

أما ابن هيدور يجزم في قوله أن الغلاء والأمراض علاقة تلازميه، " إذا كان الغلاء وطال واشتدت أسبابه لزم عنه الوباء" أي كلما زاد الغلاء اشتد المرض (البياض، 2008م، صفحة 22)، لذلك نستطيع القول أن المجاعة دائما تكون مقرونة بالوباء والأمراض الفتاكة التي أحدثت نزيف في الحياة البشرية، لأن هذه الأوبئة كانت تنتقل من منطقة إلى أخرى وبأسرع وقت (البياض، 2008م، صفحة 24).

كما ذكر الفقيه الونشريسي في المعيار، أبو العباس المراكشي بما نصه: " هذا الكلام صحيح في نفسه، غير أنه لا يستفاد جميعه من الآية الكريمة، ومن أين يلزم من سبق جميع المصائب أو غيره من الفرج بما أتى وأين وجه أخذه من الآية الكريمة؟ » ما أصاب من مصيبة « (الوزان، 1983، صفحة 84).

4. 2. الوضع السياسي و بنية الاقتصاد:

عند ظهور أي وباء أو مرض أين كان فله تأثير على الدولة أو السلطة الحاكمة واقتصادها فتتصدى له بأي محاولة لتخلص منه مثل ما ظهر الوباء في المغرب الأوسط، ففي بلاد إسبانيا قامت السلطة الحاكمة بناء دور للذين أصابهم الوباء وحدهم والاعتناء بهم حتى الحد من انتشار هذا الوباء، الذينلقبوه بالبرص، وأهل تونس كانوا يطلقون عليه اسم داء الإفرنج، كتميز له عن جوائح قد تكون ظهرت بالتزامن مع ظهوره في بلادهم.(خالد، 2009، صفحة 5).

عندما وصل هذا الوباء إلى المغرب الأوسط حصد الكثير، فتقلص النشاط الاقتصادي واضطربت الأحوال الأمنية والسياسية داخل الدولة الزيانية، ونشوء الصراع داخل البيت الحاكمة، والتكالب الحفصيين والمرينيين عليا، والنزاع بين أبوا حموا موسى وابن عمه أبي زيان بن سعيد خلال القرن 07م، و انقسمت البلاد إلا قسمين الجزائر وشرقها إلى أبي زيان وتلمسان وغربها إلى أبوا حموا موسى الثاني (البياض، 2008م، صفحة 22)، والعكس صحيح عندما يتأزم الجانب الاقتصادي من خلال الجوائح الطبيعية أو البشرية فتكثر المجاعات وتنتج عنها الأمراض (الونشريسي أ.، المعيار المعربو الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية و الأندلس و المغرب، 1981 ، صفحة 18).

4. خاتمة:

لا يمكن دراسة موضوع اجتماعي في تاريخ بلاد المغرب دون مراعاة الترابط القسري لمختلف الجوانب الأخرى به وبموضوعاته، وهي إحدى صعوبات البحث في العلوم الانسانية التي تتمثل في تباين واضح في الرؤى والقراءات، بسبب تعدد معايير وآليات البحث وبسبب تعدد المصادر وتنوعها حيناً، وبسبب غياب المادة التوصيفية المتكاملة في أغلب الأحيان.

فقد ميز المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط في عهد الدولة الزيانية العديد من الجوائح الطبيعية منها: الرياح والسيريكو والفيضان والأمطار والتلوج والقحط والمجاعات والأوبئة وغيرها من الجوائح، التي دونها المؤرخون في كتاباتهم التاريخية وتناولها الفقهاء في الفتاوى والنوازل الفقهية، لذلك يجب عليا دراسة هذا الجانب من التاريخ الهامشي المنسي، وقد اخترت هذا الجانب وتناولته عبر إطراق مقاربات تتعلقبالجوائح الطبيعية، وهي الأوبئة في المغرب الأوسط.

و عند إطراقي لموضوع الأوبئة أو الطواعين كما اتفق على تسميتها بعض المؤرخين يمكن استخلاص النتائج التالية:

لقد شكلت الأوبئة خطرا يمكن أن يصل إلى توصيفه بالكارثي على حياة الساكنة في المغرب الأوسط خلال النصف الثاني من العصر الوسيط، إذ أصبحت تلك الجوائح عاقبا أمامهم يتعاطون مع تأثيره المباشر في حياتهم اليومية، مثل ما يحدث في عالمنا المعاصر اليوم من تفشي لأوبئة خطيرة أربكت حياة الناس و غيرت من اهتمامتهم الحياتية و ضربت صميم الأنشطة الاقتصادية و ما يرتبط بها من حركة تبادل السلع و المنتجات.

تعرض المغرب الأوسط خلال العهد الزياني خاصة في القرنين 07-08هـ/13 - 14م، إلى الكثير من الأوبئة التي كانت تتراوح ما بين الزوال والاختفاء، ثم تعود بعد سنوات كما وضع بعض المؤرخين أنها تعود كل أربع سنوات، حيث تزامنت هذه الأوبئة مع ظهور الحروب والصراعات المتوالية على المغرب الأوسط.

فمن أنواع الأمراض والأوبئة التي كانت تظهر في المغرب الأوسط خلال الحكم الزياني، منها: الوباء، الطاعون، الجدري، الجذام، الحصبة، الحمى، البرص، السعال، نزع الشعر (القرع) ، فنحن اقتصرنا عن ذكر بعض الأمراض فقط.

حيث أدى ظهور هذه الأمراض والأوبئة حصد الكثير من أرواح البشرية، والشيء البارز أن هذه الأوبئة لا تفرق بين قوي أو ضعيف وغني أو فقير فهي ليس مثلا لحروب والنزاعات.

كما يترأى للباحث أن الأوبئة تؤثر مباشرة على الجانبين الاجتماعي والاقتصادي، لما تصبح ظاهرة الجوع سببا مباشرا للتهرب، والسرقة، والسلب، والقتل، مما يسمثل تأثيرا سلبيا على الجانب الثقافي لما أصبحت الأمية منتشرة بشكل رهيب زادها الإيمان بالخوارق والخرافات، سوءا بسبب الخوف من الوباء والانقطاع عن طلب العلم والانزواء عن مخالطة الناس.

إن تركيز أجهزة الحكم على الجانبين الطبي والأمني، استنزف بشكل رهيب مقدراتها وأعاق انتباهها لجوانب حيوية أخرى فأثر ذلك في الجانب الاقتصادي مباشرة وانتقلت القوى الحية في المجتمع والدولة من التنافس على عمارة الأرض إلى مسابقة الزمن من أجل البقاء الغريزي.

إن تناول موضوع الأوبئة والجوائح يحيلنا مباشرة إلى أسباب تراجع الأداء الحضاري لبلاد المغرب الاسلامي نهاية العصر الوسيط، فإن لم تكن تلك الأوبئة سببا مباشرا في ذلك الانكسار، فإنه من المؤكد أنها تضاف إلى عوامل أخرى، ساهمت في تغيير منحى الحضارة والعمران وقيام الدول واستقرار الجماعات على مجالها الجغرافي المعروف

ببلاد المغرب في العصر الوسيط، وجعلتها عرضة للانتقال إلى فترة لاحقة مغايرة لها تماما سواء في الملمح المجتمعي أو في الأداء الاقتصادي هي الفترة الحديثة.

قائمة المراجع:

المؤلفات:

- 1- ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت 2006م.
- 2- ابن سينا، القانون في الطب، ج 1، مكتبة جمهورية مصر، القاهرة، مصر، دت.
- 3- أبو جعفر أحمد ابن خاتمة الأندلسي، مخطوطات ومطبوعات تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد (ت 747هـ)، شبكة الألوكة، www.alukah.net، دت.
- 4- أبي العباس أحمد بن يحيى الوئشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تح: الدكتور محمد حجي، ج 11، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981 م.
- 5- أبي عبيد البكري (ت 487هـ)، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري (ت 487هـ)، الناشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت.
- 6- أبي عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية لأبي عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني (ت 781هـ)، تح: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1429هـ/2008م.
- 7- البرزلي أبي القاسم بن أحمد البلوي التونسي (ت 841هـ)، فتاوى البرزلي جامع مسائل الاحكام لما نزل من القضايا بالمفتيين والحكام، تح: محمد الحبيب الهيلة، ج 6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2002م.
- 8- الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، الدار البيضاء، الرباط، المغرب، 2010م.
- 9- الشيخ داود عمر الانطاكي، بغية المحتاج في المحراب من العلاج، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1995.10- المازوني أبوا زكرياء يحيى بن موسى بن عيسى بن يحيى المغيلي (ت 883هـ)، الدرر المكنونة في نوازل مازونة تح: إسماعيل بركات، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم التاريخ، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2009-2010م.

- 11- تلي رفيق، المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية، برلين، ألمانيا، 2021م.
- 12- حسن الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1983م.
- 13- عبد الرحمان ابن خلدون (ت 808 هـ)، مقدمة ابن خلدون، تح: عبد الله محمد درويش، مكتبة الهداية دمشق-، سوريا، 2004م.
- 14- عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والاندلس (ق 6-8/12-14)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2008م.
- 15- محمد المواق ومحمد الرصاع، الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية (886هـ- 1481م)، نص جديد حول الأندلس وإفريقية قبل سقوط غرناطة، تح: محمد حسن، دار المدار الإسلامي، بنغازي، ليبيا، 2007م.
- 16- محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، د م، تونس، 1999م.

الأطروحات:

- 1- سكيمة عميور، ريف المغرب الأوسط في القرنين 05 و 06هـ / 11 و 12م، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة 02، الجزائر، 2012 - 2013م.
- 2- مزدور سمية، المجاعات والأوبئة في المغرب الإسلامي (588- 927هـ / 1192 - 1520م)، مذكرة الماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، الجزائر، 1429-1430هـ/2008-2009م.

المقالات:

- 1- خالد بالعربي، المجاعات والأوبئة في العهد الزياني (698-845هـ/1299-1442م)، دورية كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة ربع سنوية، ع4، 2009م.

المدخلات:

مواقع الأنترنت:

- 1- منظمة الصحة العالمية (07 تموز / يوليو 2022م)، منظمة الصحة العالمية - جمع الحقوق محفوظة، <https://www.who.int/plague<detail>>،
http://adresse complète (consulté le jour/mois/année)

